



# إشكاليات ترجمة القرآن الكريم إضاءة تاريخية نقدية لترجمة روبرت أوف كيتون: ومراجعة جيمس كريترك لها

يطرح أحد الباحثين العرب المسلمين في بداية دراسة له حول ترجمة القرآن الكريم تساؤلاً وجيهاً: «ترجم غير المسلمين القرآن الكريم إلى لغاتهم بقصد الرد عليه، وأول ترجمة من هذا النوع كانت إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى ليقصد ترجمة روبرت أوف كيتون للقرآن الكريم». ثم ترجم آخرون من هؤلاء في العصور الحديثة إلى لغات أوروبية أهمها الإنكليزية والفرنسية. ولكن لم يترجمه أحد من المسلمين حتى العهد الأخير، وجل هؤلاء إن لم يكن كلهم من غير العرب أو ممن دخلوا الإسلام حديثاً. فما هي أسباب ذلك، مع أن كثرة المؤمنين برسالة محمد ﷺ هم من غير العرب ولا يتكلمون العربية؟». ويخوض هذا الباحث في موضوع أحكام ترجمة القرآن وتاريخها ويقدم في نهاية دراسته تفسيره لإحجام العرب عن ترجمة القرآن وإقدام غيرهم من المسلمين. ويرى أن أهم أسباب ذلك الإحجام يكمن في آيات القرآن الصريحة، فما جعله الله عربياً لم يجسر عربي على أن يجعله غير ذلك، فللقرآن في روع كل عربي واقف على أسرار بلاغته العربية منزلة من التعظيم والتكريم لا تعلق عليها منزلة، فهو يضمّر في قلبه حرصاً على إبقاء هذين التراثين، القرآن الكريم ولغته الشريفة، متكاملين على الوجه الذي أراد الله وارتضاه رسوله وألفه العرب. إن ما يهمنا في هذا الكلام أن الأوروبيين لم ينتظروا العرب والمسلمين كي يترجموا القرآن الكريم بل قاموا بترجمته إلى اللاتينية في وقت مبكر من تاريخ عدوان الغرب الأوروبي ضد العرب والمسلمين، في حقبة الحروب الصليبية، التي كانت ترمي في ظاهرها إلى تخليص بيت المقدس من يد المسلمين، وفي حقيقتها إلى تدمير الإسلام والسيطرة على الشرق العربي الإسلامي بما فيه من

خيرات ومراكز. لذلك هدفت الدراسة الحالية إلى تقديم إضاءة حول إحدى الترجمات المبكرة التي وضعها أناس معادون أساساً للإسلام وعلى شخصية أصحابها ونفسياتهم ومواقفهم السلبية والعدائية المستترة وراء غطاء أيديولوجي مزيف اتخذوه خدمة لمآربهم وأهدافهم وأهداف من هم وراءهم، وتستند في ذلك إلى مطالعة في الوضعية التاريخية التي تساعد في تحقيق عملية الإحاطة بالقضية المطروحة، كما يساعد نقل مراجعة جيمس كريترك إلى العربية في التعرف على الترجمة ووضعها والحكم عليهم. والحق، إن الفائدة الحقيقية تكمن في دراسة الترجمة ذاتها دراسة متأنية. بيد أن المحاولة هنا ترمي إلى إثارة النقاش ولفت انتباه المترجمين والباحثين ضمن الحدود المرسومة لهذا العمل تاركة للمتخصصين النوعيين مهمة البحث والتحقق والتدقيق والرد، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى معرفة متخصصة ووقت طويل وجهد متواصل للوقوف عليها.

في معرض حديثه عن تاريخ الاستشراق وميدانه ودوافعه يتحدث الدكتور مصطفى السباعي عن صعوبة تحديد من هم الغربيون الأوائل الذين عنوا بالدراسات الشرقية وفي أي وقت كان ذلك، ولكن من المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتوقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتعلموا على علماء المسلمين في مختلف العلوم. ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي جبريت الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام 995م بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده وبطرس المحترم (1092 - 1156م) وجيراردي كريمون (1114-1187م).



د. فؤاد عبد المطلب

جامعة جرش - الأردن

وما أن عاد هؤلاء إلى بلادهم حتى نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية، أخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العربية المترجمة إلى اللاتينية - وهي لغة العلم في جميع أوروبا يومئذ - استمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعدّها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون. ثم يذكر الدكتور السباعي دوافع الاستشراق الدينية والاستعمارية والتجارية والسياسية والعلمية، ويقسم أهداف المستشرقين في جملتهم إلى ثلاثة أقسام أولها: ما يهمنها منها هو الهدف العلمي المشبوه الذي يهدف إلى التشكيك بصحة رسالة النبي ﷺ ومصدرها الإلهي، وإنكارهم أن يكون الإسلام ديناً من عند الله وإنما هو ملحق - عندهم - من الديانتين اليهودية والمسيحية. ويتطرق شكيب أرسلان إلى بعض الطعن والقذف والتشويه الذي حمله الغربيون تجاه النبي محمد ﷺ وتأكيد بعض المستشرقين لتلك الأباطيل: «فقد مثل هؤلاء محمداً بوصفه رجلاً كاذباً، والإسلام بوصفه عملاً من أعمال الشيطان، والمسلمين بوصفهم قومًا همجاً، والقرآن بوصفه كتاباً منسوجاً من أوله إلى آخره بالمحالات. وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة إلى الأخذ والرد في هزو كهذا. ثم إن (بيير لوفتيير) مؤلف أول كتاب ضد الإسلام ترجم مع ذلك في القرن الثاني عشر القرآن إلى اللاتينية. ثم في القرن الرابع عشر ظهر (بيير باسكال) فعلم عن الإسلام أكثر من غيره. ثم إن (البابا اينوشانيوس الثالث) قال عن محمد: إنه المسيح الدجال. ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون إليه نظرتهنم إلى رجل مبتدع ممن يقال لهم الهرطقة. ثم ظهر ريموند لول في القرن الرابع عشر وغلبيوم بوستل في القرن السادس عشر ورولان وغانبيه في القرن الثامن عشر والأب دوبروغلي ورينان في القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة.... ولا يزال للإسلام إلى يومنا هذا أعداء شديداً العصبية».

وفي هذا الإطار يعقب الدكتور محمد صالح البنداق على عمل هؤلاء المستشرقين الذين نتحدث عنهم والذي لم يكن قائماً على مبدأ العمل المتجرد والبحث العلمي النزهي، ثم يتطرق إلى اندفاعهم إلى ترجمة القرآن الكريم بالذات وإنتاج ترجمات اعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم كتاب الإسلام، فجاءت «قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، وهي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمد تحريف كلمه من مواضعه، على أنه قلما يكون فهمهم تاماً صحيحاً، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمناً، بل يجتمع لكل منهم التصوران كلاهما: تصور فهمه، وقصور لغته». ويسوق الدكتور البنداق عدداً من الأهداف التي توخاها المستشرقون من ترجمة القرآن، منها التزامهم

## «يتطرق أحد الباحثين والمترجمين في عمل له أيضاً إلى بعض أهداف من قاموا بترجمة القرآن الكريم في الماضي، فيذكر منها: الاطلاع على ما جاء في القرآن لمحاربته؛ ومحاولة إبراز قدرات استشراقية على فهم العربية، وتصديدها للنص القرآني»

بحرية الترجمة فتأتي الترجمة موافقة لأهوائهم من حيث التصرف بالنصوص عن طريق التقديم والتأخير والإهمال وغير ذلك، ومنها ترجمتهم للقرآن ليحاربوه، وانطلقوا من فكرة ترجمة القرآن الكريم صراحة لدحض المبادئ الإسلامية وتفنيدها. وقد فعلوا ذلك بروح رجعية متزمنة سداها معاداة الإسلام. ولنا على ذلك مثل في الترجمة الأسبانية التي وضعها موركيوندو أي أو اوكراتوندو وعنوانها هكذا بكل صراحة: «القرآن مترجم بأمانة إلى الأسبانية ومعلقاً عليه ومدحّضاً طبقاً للعقيدة والتعاليم المقدسة والأخلاق الكاملة للدين الكاثوليكي المقدس الرسولي الروماني» وهي بدون تاريخ، كما أن هؤلاء المستشرقين اندفعوا نحو الترجمة الكيفية لا الصحيحة والعلمية أو حتى النسبية لحد ما، إمعاناً في التحريف والتضليل خوفاً من أن يعتق الإسلام من يقف من الأوروبيين على حقيقة النصوص القرآنية فيما لو حصل على ترجمة صادقة أو صحيحة، ومنها أيضاً تعمد التحوير في ترجمة بذاتها بحيث يبرز شرح أو تفسير كلمة مغايرة لما كان عليه في الطبعة الأولى مما يدل على روح التضليل، ومنها تحبيذ نشر ترجمات معينة مضللة أو إعادة نشرها وترجمتها إلى لغات أخرى، وخصوصاً الترجمات التي تتطوي على الأضاليل والتحويلات والأخطاء والسطحات التي سداها الحقد والتعصب الذميمة. إن ذكر هذه الأهداف والآراء هنا ليس نقلاً أو ترغافاً فهو يتصل على نحو مباشر بقضية ترجمة كيتون للقرآن والظروف التي تمت فيها، لأن تلك الأهداف تجسد على نحو آخر في حال هذه الترجمة المذكورة، كما أن الغرض من الحديث حول أهداف المستشرقين بخصوص ترجمة القرآن يؤسس للنقاش لاحقاً في هذا العمل.

إضافة إلى ذلك كله، يتطرق أحد الباحثين والمترجمين في عمل له أيضاً إلى بعض أهداف من قاموا بترجمة القرآن الكريم في الماضي، فيذكر منها: الاطلاع على ما جاء في القرآن لمحاربته؛ ومحاولة إبراز قدرات استشراقية على فهم العربية، وتصديدها للنص القرآني، ولكنها لم تسلم من الخلفيات الدينية أو الفكرية التي واجهتها، ومنها سعي فرق مذهبية بعيدة عن الإسلام لتدس في القرآن عقائدها وآراءها؛ ومنها إظهار حسن النية في ترجمة معاني القرآن الكريم لترجمات تميزت بالتعمق في اللغتين العربية والأجنبية على ما فيها من مأخذ، كأن تحو منحنى

العامية أحياناً، وتحكمها الأهواء أحياناً أخرى. وسعى إلى هذا الأمر بعض المستشرقين واليهود ممن تعاطفوا معهم فترجموا القرآن الكريم وعلقوا بحجة الدراسة النقدية المنهجية، وكان غرضهم التهجم على الإسلام وإنكار أصالة ما جاء فيه، والتيل من قيمه الدينية. وتماشياً مع كثير من الأهداف المذكورة يمكن القول إن ذلك كان إلى حد كبير حال أول ترجمة لاتينية أوروبية مسيحية للقرآن الكريم وهي الترجمة التي ظهرت في أوروبا في بداية عصر المواجهة بين المسلمين والمسيحيين الغربيين في الأندلس، إبان حقبة الحروب الصليبية.

## «لقد كانت الغاية المعلنة من مشروع الترجمة هذا معرفة كتاب الإسلام، والهدف الحقيقي هو أن تكون الترجمة سلاحاً يستخدمه المسيحيون ضد المسلمين في مدة انطلاق أهم الحملات الصليبية إلى الشرق العربي الإسلامي.»

وقد أنجزت هذه الترجمة بتكليف من الراهب بيتر الجليل الذي كان رئيساً لدير رهبان كلوني من عام 1122م إلى عام 1156م وهي سنة موته. ولد هذا الراهب في منطقة أوفرني في فرنسا عام 1092م، وكان ناشطاً مسيحياً كبيراً، وصديقاً لأباء الكنيسة والملوك. دفعه حب الاطلاع عام 1141م إلى زيارة الأديرة البندكتية، أديرة الرهبان من أتباع بنديكت في طليطلة، فسحرت روعة الحضارة العربية الإسلامية التي شهدتها بأم عينه، واعتزته الرهبة، واعتزم الاطلاع على العوامل الباعثة لهذه الحضارة التي رأى فيها منافساً جباراً للمسيحية، فقرر أن يطلع على مصادر الإسلام. وصادف هناك قساً إنكليزياً يدعى روبرت أوف كيتون، ففوضه مع آخرين بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، فأنهى ذلك القس الترجمة عام 1143م، ومخطوطتها موجودة بخطه في مكتبة الأرسنال في باريس. وقد ظهرت على ترجمة روبرت أوف كيتون حواشٍ وتعليقات تتم عن روح صليبية عدائية تجاه القرآن الكريم والنبي محمد ﷺ، مما يدخل في إطار القدح الكريه. وبالرغم من ذلك فإن السلطات الكنسية آنذاك لم تسمح بظهور هذه الترجمة مباشرة نظراً لسيادة الشعور الصليبي المغالي، وخوفاً من أن تؤدي هذه الترجمة على مساوئها، غرض التعريف بالإسلام وانتشاره عوضاً عن الهدف الأصلي، وهو محاربة الإسلام (مع أن أوساطاً دينية مسيحية كثيرة اطلعت عليها وتأثرت بها). ظهرت هذه الترجمة مطبوعة في عام 1543م في مدينة بال السويسرية لدى الناشر بوكمان بيليارد، وأعيد طبعها مرتين في زيورخ عام 1550م وعام 1556م. لقد كانت الغاية المعلنة من مشروع الترجمة هذا معرفة كتاب الإسلام،



والهدف الحقيقي هو أن تكون الترجمة سلاحاً يستخدمه المسيحيون ضد المسلمين في مدة انطلاق أهم الحملات الصليبية إلى الشرق العربي الإسلامي. وقد قال نورمان دانييل عن روبرت في ترجمته إنه «كان دائماً يغلو ويبالغ في ترجمة نص غير عدائي كي يضي عليه طابعاً كريهاً أو إباحياً، أو لتفضيل تفسير غير محتمل ومكروه على تفسير محتمل ومقبول».

إن ظهور هذه الترجمة ينطوي على مفارقة جليلة فقد تزامن ذلك مع الأحداث الدامية التي شهدتها الشرق نتيجة للحقد الصليبي المسلح ضد العرب والمسلمين، ومع حركة فكرية ودينية إصلاحية في الغرب جاءت نتيجة ردة فعل للحروب الصليبية ولعوامل عديدة أخرى. وقد أشار غير باحث إلى هذه النقطة؛ فقد أوضح محمد أبو طالب في هذا السياق: «أن من غريب المصادفات أن بعض ترجمات القرآن الكريم صدرت في ظروف معينة من تاريخ الحضارة الفكرية والاجتماعية والدينية في الغرب. فالترجمة الأولى صادفت حركة الإصلاح الديني التي انطلقت من كلوني في فرنسا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكانت تهدف إلى إرساء قوانين مؤسسة الكنيسة من جهة، والعمل على تحرير الفرد من شتى القيود من جهة أخرى. ونذكر على سبيل المثال الانقسام الذي وقع بين اليونان وبين الروم داخل الكنيسة سنة 1054».

ومن رواد هذه الحركة المشرف على الترجمة المذكورة القس المعروف ببيتر الجليل سنة 1143م. وقد ظهرت الطبعة الثانية إبان النهضة الحاسمة في تاريخ المسيحية التي قادها مارتن لوتر (1483-1546م) الذي كان له اهتمام نسبي بالإسلام، وكان من بين الملحّين على إصدار هذه الترجمة التي كتب لها تقدماً. وعلى الرغم من الموقف المعادي للإسلام آنذاك، فما لا شك فيه أن هذه الترجمة كانت عنصراً فعالاً في تطوير الفكر الألماني خاصة والغربي عامة. ستحاول المناقشة الآتية التطرق إلى تلك الثنائية الغريبة بطرفيها الصليبي والإصلاحي وبيان تأثيرها في ترجمة روبرت أوف كيتون.

ففي الشرق، كانت الحرب الصليبية الأولى التي جرت ما بين الأعوام 1096-1146م بمثابة الشرارة التي أشعلت الحرب بين الشرق الإسلامي وأوروبا الصليبية التي بدأت في أعقاب خطبة البابا أوربان الثاني خارج مدينة كليرمون في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام 1095م/496هـ أمام حشد كبير من الناس، ودعوة بيتر الجليل الذي هجر الدير وأخذ يتجول في شتاء عام 1095-1096م في أرجاء فرنسا داعياً لحملة البابا. وكان بيتر الجليل في مقدمة جيش الحملة في ربيع عام 1096م/497هـ الذي زحف باتجاه مدن الشرق فاستولى عليها كمدينة نيقية، عاصمة الدولة السلجوقية، ومدينة أنطاكية التاريخية، والقدس، وارتكب الصليبيون ما

ارتكبوا من مجازر وسلب ونهب ولاسيما في بيت المقدس (انظر، ابن خلدون في كتابه (العبر)، وويلز في كتابه (موجز تاريخ الشرق الأوسط) والمؤرخ نقولا زيادة في كتابه (الصليبيون في الشرق). كما تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على معظم ساحل البحر الأبيض المتوسط باستثناء صور وعسقلان. ودار خلال ذلك عدد من المعارك والمواجهات، وما لبث أن ظهر عماد الدين الزنكي الذي دانت له الموصل عام 1127م/521هـ ففدا أقوى حاكم مسلم ليقود حركة الجهاد ضد الغزاة الصليبيين. وتمكن عماد الدين الزنكي من توحيد الصفوف وتوجيه ضربات قوية للصليبيين، فبعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً استطاع أن يدخل الرها ويستولي عليها بعد أن قضى على الصليبيين فيها. فكانت الرها هي أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربي الإسلامي، وبشاء القدر أن تكون أول إمارة تتحرر. وقد سبب سقوط الرها صدمة مؤلمة وعنيفة للصليبيين، تردت أصداؤها في كل من الشرق والغرب، إذ كانت المدينة ترتبط بتراث مسيحي باكر، كما أن سقوطها بعد ما يقارب من خمسين عاماً على استيلاء الصليبيين عليها كان نذير شؤم بالنسبة إليهم. وخلف نور الدين محمود أباه عماد الدين الزنكي في إمارة الموصل بعد عامين من تحرير الرها إثر مقتله غيلة عام 1146م/541هـ. ولم يستكن نور الدين الزنكي عن توحيد الإمارات الإسلامية في الشرق للقضاء على الكيان الصليبي وتحرير بيت المقدس.

أحدث سقوط إمارة الرها (Edessa) وتحريرها على يد عماد الدين الزنكي هزة كبيرة في أوروبا، وفي الشرق - حيث مستوطنات الصليبيين - كان الإحساس بالهزيمة مريراً، فذهب وفد من فرنجة الشرق إلى بلاد البابا ايجنيوس الثالث، وذهب وفد من الأرمن يستهض همم البابوية وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها التي ضاعت منهم، ونتيجة لمساعي القديس برنارد وخطبه الدينية أمام بارونات فرنسا التي كان يؤكد فيها أن سقوط الرها لم يكن كارثة ولكنها إرادة الرب في أن يمتحنهم من أجل أن يهبوا لاستردادها. وشرع برنارد يبارك البارونات في أرجاء فرنسا و(الحجاج) المحاربين الصليبيين من أجل أن يهبوا في حملة صليبية جديدة إلى المشرق ستعد لاحقاً من أشد الحملات المتطرفة دينياً. كان برنارد مصمماً على أن تكون الحملة عالمية يشترك فيها جميع أبناء العالم المسيحي في الهجوم على المسلمين ومن ثم لتدمير الإسلام نهائياً. ونتيجة لذلك تجمع جيش فرنسي كبير قوامه سبعون ألفاً على رأسه لويس السابع ملك فرنسا، وتجمع جيش ألماني قوامه سبعون ألفاً أيضاً على رأسه إمبراطور ألمانيا (كونراد) الثالث. سلك الجيش الألماني طريق البحر ورست سفنه على شواطئ آسيا الصغرى، وعلى أراضي السلاجقة هاجمه المسلمون وأجبروا قسماً منه على العودة، واضطر الإمبراطور الألماني إلى التخفي

واستطاع أن يفلت من الحصار ويصل إلى بيت المقدس. أما الجيش الفرنسي فسار بطريق البر حتى وصل إلى القسطنطينية وعرف هناك أن حشوداً إسلامية كبيرة تنتظره في إمارة الرها، فالتف حولها، متجنباً الصدام معها، وتقدم نحو بيت المقدس. وفي بيت المقدس اتفق كل من الملك الفرنسي والإمبراطور الألماني مع بلديين الثالث ملك بيت القدس على الزحف إلى دمشق واحتلالها. وحاصر الصليبيون مدينة دمشق، لكنها كانت بالغة القوة والتحصين. فسارعت قوى إسلامية عديدة لإنقاذ دمشق وفك الحصار من حولها، مما اضطر الجيوش الصليبية إلى التقهقر والانسحاب ليتفادوا معركة دموية كبرى لم يجرؤوا على الدخول فيها. وفشلت الحملة الصليبية في استرداد الرها وانسحبت جيوش الصليبيين إلى أوروبا وهي تشعر بمرارة الخزي والهزيمة. وقد دامت أحداث الحملة الصليبية الثانية من أواخر 1147م/532هـ إلى أواخر عام 1149م/534هـ.

وفي الغرب، خصوصاً في فرنسا كانت هناك نزعة فكرية تتجه نحو التعلم بالإضافة إلى الروح المسيحية المتدنية السائدة. فبدلاً من الرحلة العدائية تلك التي تقود إلى الفتح وإلى عالم محدد مادياً، برزت الآن الرحلة الصوفية المتدنية باتجاه عالم ليس ذا نهاية مادية. ففي آخر رومانسيات (قصص الفروسية والبطولة) الكاتب كريتيان (قصة الكأس المقدسة) التي لم يكملها، يسعى فرسان إلى الكأس المقدسة التي استخدمها المسيح في العشاء الأخير والتي تحتوي دمه الحقيقي. وتتحول الكأس فيما بعد من أثر مقدس إلى رؤيا خيالية مقدسة لا يسعى فيها الفرسان إلى مدينة القدس ولكن إلى مدينة أراس السماوية التي ليس لها مكان جغرافي محدد في هذا العالم. وبدأ سعي الناس إلى أيولوجية غير مهووسة بحياسة الأراضي بالقوة أو بالعودة إلى جذور جغرافية محددة. وحاولوا تحرير العنصر المقدس من العنصر المادي ابتغاء إيجاد بديل أيولوجي للحيلولة دون الوقوع في براثن العنف الانتحاري للأيولوجية الصليبية المسلحة. وفي بداية قصة (كليجية) Cliges يلقي كريتيان نظرة إلى الماضي:

«فمن الكتب التي بقيت لنا من الماضي نتطلع إلى الأعمال العظيمة للرجال الذين عاشوا في غابر الزمان. وتجربنا كتبنا هذه أن أمثلة الفروسية والعلم كانت في الماضي تنتمي إلى الإغريق. ثم انتقلت الفروسية إلى روما. مع العلم الكبير الذي بدأ يأتي الآن إلى فرنسا. نرجو من الرب أن يحظى العلم بمكانة هنا وأن يُرحب به هنا وألا يفارقنا الشرق الذي حظينا به بسبب ذلك في فرنسا: لقد منحها الرب فرصة جديدة، ولكننا لم نعد نسمع عن الإغريق الرومان، فقد ولى زمانهم، وخمدت جذوتهم».

كان هذا يمثل شعوراً إفرنجياً جديداً: فبدلاً من النظر

إلى الوراء أي إلى الإمبراطور شارلمان فقط، نرى هنا سعي كريتيان لتأسيس علاقة مع الإغريق والرومان، مع أبطال العالم الكلاسيكي، الذين لا يمثلون قوى عسكرية فحسب بل أساطين للمعرفة. وسعى كريتيان مع غيره من الكتاب إلى بث فكري إفرنجي جديد كاستمرار للتراث القديم. وفي هذه الأثناء كان بعض العلماء يحاولون بناء جسر من الماضي الكلاسيكي الذي ضاع إبان العصور المظلمة. وكلما احتل الفرنجة أرض كانت تحت الحكم البيزنطي أو الإسلامي، كانوا يجدون هناك أناس يعرفون الإغريقية أو العربية ومطلعين على علوم العالم الكلاسيكي القديم الذي فقد الغرب الصلة معه. فأسرع العلماء الذين يجيدون اللاتينية إلى أماكن مثل أسبانية وصقلية، وفيما بين الأعوام 1150 و1187م قام علماء مثل جيرالد أوف كريمونا وتلميذه دانييل مورلي باكتشاف ثروة من النصوص وتراث علمي كبير مترجم لدى العلماء العرب، فحاولوا يشتي السبل تأمينه كي يصل إلى أيدي الطلبة الأوروبيين. فشرعوا في ترجمة الكتب عن العربية واكتشفوا أعمال أرسطو العلمية بينها بالإضافة إلى أعمال العلماء العرب الفلسفية والعلمية. وقد كانت طليطلة مركزاً مهماً للترجمة: فقد وجد دانييل مورلي أعمال علماء عرب عدهم (من أكثر الفلاسفة حكمة في العالم). ولما لم يكن في الأجواء حساسيات دينية كان الاتصال يتم بين العلماء من كل الديانات، ولا سيما المسلمين والمسيحيين، وقد كانوا يتعاونون العلم على نحو موضوعي. فمن جهة كان العرب قد استوعبوا معارف العالم الهلنستي والعالم الكلاسيكي القديم وتمثلوها على نحو مكثف من نقلها بصورة مفهومة وواضحة إلى العلماء من أديان أخرى. وعبر ترجمة الكتب العربية وقراءتها كان العلماء الغربيون حقاً يعودون بأوروبا إلى جذورها الكلاسيكية، ويكتشفون تراثاً فكرياً غنياً ضائعاً. وقد تعلم أولئك الأوروبيون كثيراً من الفلاسفة العرب وعلمائهم؛ من أمثال الفيلسوف والطبيب أبي علي الحسين بن عبد الله ابن سينا (المتوفى سنة 1037م) وكان اكتشافهم الأعظم في قرطبة لعاصمهم أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد (متوفى سنة 1198م). وقد اختصرت هذه الأسماء على التوالي إلى أفيسين Avicenne وأفيروس Averroes، وهكذا أصبح العلماء العرب الحكماء الجدد ومرشدي الغرب الذي يشق طريقه نحو الأمام بصعوبة، والذي أخذ يبني تقاليد مدرسة علمية طبقاً للمناهج العربية، مع تأكيد علمي النحو والمنطق خاصة، ولذلك كان بعض المسيحيين في حقبة الحملات الصليبية يتعلمون من العرب بدلاً من ذبحهم باسم الرب، فمن خلال ذلك التعلم والروح العربية الإسلامية الإيجابية والمتسامحة في العطاء بدأت الحياة الفكرية الجديدة تعطى أكلها. وتذكر كارين أرمسترونغ صراحة أن العرب المسلمين على نحو خاص كانوا نوراً بالنسبة إلى الغرب

## «كان توما الإكويني يمتدح ابن سينا وابن رشد ويعجب بهما لكنه كان يرفض دينهما الإسلامي ويعده غلطة أو زلة وثنية من طرفاهما. وحاول آخرون اقتطاع كلام لابن سينا من أجل الرد على الإسلام»

المسيحي، ومع ذلك فإن ذلك الدّين قلما أشير إليه أو اعترف به. وما إن اكتملت عملية الترجمة العظيمة تلك فيما بعد، حتى أخذ الأوروبيون يُجردون أنفسهم من تلك العلاقة المعقدة والمرضية - بالنسبة إليهم - مع الإسلام، وأصبحوا غامضين فعلياً في تعاملهم وتصريحاتهم عن العرب والمسلمين، وكأنهم لم يعرفوهم قط. وبدا هؤلاء الأوروبيون وكأنهم غير قادرين تماماً على المطابقة بين العرب المسلمين الذين تعلموا على أيديهم، وبين العرب المسلمين الذين يقاثلونهم عبر حملاتهم الصليبية وأصبح العرب يُحشرون دون تمييز مع (الوثنيين) أو (القبليين) Gentiles مثلهم مثل قدماء الإغريق والآشوريين والكلدانيين وغيرهم. فنادراً ما صدر تصريح يُعدّ العرب من غير الوثنيين أو القبليين على الإطلاق أو أنهم كانوا يؤمنون بإله إبراهيم الخليل. وظهرت تناقضات مضحكة أحياناً في أفكارهم: فقد كان توما الإكويني يمتدح ابن سينا وابن رشد ويعجب بهما لكنه كان يرفض دينهما الإسلامي ويعده غلطة أو زلة وثنية منهما. وحاول آخرون اقتطاع كلام لابن سينا من أجل الرد على الإسلام. وعندما يتخيل دانتي موطن الأرواح المحرمة من دخول الجنة ليضع فيه الأخيار من (الوثنيين) فإنه يُدخل ابن سينا وابن رشد معهم، ولكنه يضعهم في آخر قائمة العلماء الإغريق واللاتينيين المميزين الذين يعدمهم من الأسلاف المفكرين. وترسخ - خلال عصر النهضة في أوروبا فيما بعد - ذلك التراث الكلاسيكي في الوعي الأوروبي، وأسقطت اللغة العربية من المناهج الدراسية، ورفضت من قبل الهيلينيين الجدد بوصفها لغة همجية وغدت العلاقة مع الإسلام والعرب معقدة بالنسبة إلى الأوروبيين في أن يتعاملوا معهم على نحو متوازن وموضوعي. وجعلت النزعة الصليبية العرب جزءاً مكروهاً من الهوية الغربية. كما أن علماء تلك الحقبة وجدوا أنفسهم على نحو مشابه غير قادرين على تمييز أولئك الإغريق الذين اكتشفوهم مؤخراً بوصفهم جزءاً لا يتجزأ منهم كفريين أنهم فعلياً هم أجداد البيزنطيين المكروهين. إن تلك الحركة العلمية الهادئة المبدعة فكراً وفتناً والتي تتلمذت على يد العرب المسلمين كانت ترفض على مستوى من المستويات عنف الحملات الصليبية على صعيد القول أو الشكل فحسب. ومبعث هذا الرفض ليس حب المسلمين ولكن الرعب والهلع من المذابح التي سترتكب بحق المسلمين والموت والهزيمة اللذين ينتظرانهم في نهاية الحملة بالنسبة

إليهم. وحتى في أحسن حالات هذه الحركة كان هناك في النظر إلى العرب والمسلمين قمع غير طبيعي وتكبر مزدوج حيال أولئك الناس الذين كانوا يوماً ما مرشديهم ومعلميهم، ومثالهم الرائع، فهم الآن أعداؤهم الوثنيون الميتون. فإلى تلك الحركة على ما يبدو كان الراهب بيتر الجليل ينتمي. وكثيراً ما كان البحث الغربي في الإسلام يتميز بتلك النظرة المزدوجة السابق ذكرها، ويبدو أيضاً أن مراجعة جيمس كريتك لترجمة روبرت أوف كيتون تندرج في سياق هذه النظرة.

ولقد ذكرنا سابقاً أن الراهب بيتر الجليل ولد في منطقة أوفرني بفرنسا عام 1092م، وكان ناشطاً مسيحياً كبيراً فأصبح رئيساً لدير رهبان كلوني من عام 1122م وحتى عام 1156م وهو عام موته. ولا بد هنا من الإشارة إلى الدور الكبير الذي قام به دير كلوني في نشر التشدد الديني المسيحي من طرف وإيقاظ الوعي الغربي من طرف آخر وإلى إسهام بيتر في ذلك عبر نفوذه الروحي وصداقته مع آباء الكنيسة والملوك، فقد دفعه حب الاطلاع عام 1141م إلى زيارة الأديرة البندكتية في طليطلة، فعزم الاطلاع على العوامل الباعثة للحضارة العربية الإسلامية التي سمع بها ورأى فيها منافساً قوياً للمسيحية، فقرر أن يطلع على مصادر الإسلام، وتعرف هناك على راهبين زائرين آخرين، الأول إنكليزي ويدعى روبرت أوف كيتون والثاني هو هرمان أوف دالماتيا، وكان هذان الرجلان يبحثن عن نصوص عربية في علم الرياضيات والفلك، فقام بيتر الجليل بإقناعهما بالتعاون معه في مشروع يرمي إلى ترجمة كتب الإسلام الرئيسية. وعمل كل من روبرت وهرمان مع مسيحي إسباني يدعى بيتر أوف توليدو، وشخص مسلم، يطق عليه محمد ذا سراسين. فأدى عمل هؤلاء مجتمعين إلى ترجمة مجموعة من الكتابات التي كانت وثائق بالنسبة إليهم، فظلت تحظى باهتمام بالغ من قبل الأوساط المطلعة الأوروبية حتى نهاية القرن السادس عشر. وكان من بين هذه الوثائق، ترجمة للقرآن الكريم، وتأريخاً للعالم من وجهة النظر الإسلامية، وعرضاً لأحاديث النبي ﷺ ومجموعة من القصص الإسلامية، وعملاً مبكراً فيه جد فلسفي مع الإسلام أطلق عليه عنوان (دفاع الكندي). ويظهر أن أحد المراجعين - فيما بعد قام ببعض الإضافات على هذه الأعمال نفسها، وظلت هذه الإضافات تعد ذات مرجعية في نظر الطلبة مثلها مثل النصوص ذاتها. وبدا ذلك للأوروبيين خطوة إيجابية هائلة نحو الأمام. وبالرغم من أن هذه الخطوة أدت إلى إيجاد تقاليد جدلية، كانت بعيدة تماماً عن فهم حقيقة الإسلام، وأسفرت عن صورة فانتازية مشوهة ساعدت كثيراً على إذكاء نار الحرب الصليبية المستعرة. وادعى الراهب بيتر الجليل، بوصفه رجلاً لطيفاً ومحباً، عبر كتابته رسالة (بحث صغير) أنه سيصل إلى المسلمين عبر خطاب المحبة، ولكن





على الترجمة ولا بيتر الجليل الحملات الصليبية بعين الاعتبار، فلم يتذكر الأول مثلاً كلام القديس برنارد بأن المسألة الوثنية، ويقصد حربه مع الإسلام، إلا بالسيف، فمن جهة يقوم بيتر الجليل بإدانة استخدام العنف ويصر على الاقتراب من المسلمين بروح المحبة فقط، ومع ذلك فعندما يغادر لويس السابع ملك فرنسا في حملته الصليبية فإن بيتر يكتب إليه بأنه يأمل منه بأن يقتل من المسلمين قدر ما يستطيع، بقدر ما قتل موسى ويوشع بن نون من الأشوريين والكنعانيين. كما كتب أيضاً إلى كبير أسياد المعبد، معبراً عن إعجابه العميق والثابت للأمر الذي أصدره بخصوص القتال ضد الساراسين. إنها تركيبة نفسية غريبة متناقضة وعصائية.

وكما كان من المستحيل تماماً بالنسبة إلى المسيحيين أن يروا في الإسلام أي شيء سوى شكل مشوه عن دينهم، كان من المستحيل بالنسبة إليهم أيضاً أن يروا الإسلام غير دين عنيف، على الرغم من أن الدليل كان شاخصاً أمامهم. وبهذا تأسست منذ وقت مبكر صورة المسلم بوصفه عدواً للمسيحي، وغدت هذه الصورة فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من هوية العالم المسيحي الغربي النامية تدريجياً. لذلك كان المسلم جزءاً من الروح المسيحية الغربية وحمل عبء القلق الغربي من العنف المسيحي. إن الكتب ووسائل الإعلام وبرامج التلفاز اليوم تثبت وتتناقل عنوانات مثل (سيف الإسلام) و (الإسلام المسلح) التي ما زالت تعود إلى تلك الصورة المقولبة والمسطحة عن الإسلام، كما أن العناد الذي ما زال يجعل الناس يتعلقون بفكرة الإسلام «كدين للسيف» تظهر على مستوى من المستويات حاجة أولئك الناس لتصديق ذلك. ولا شك أن الإنسان المسيحي في الغرب قد تأثر بهذه الصورة التي ورثها عن الإسلام من ديانته ومن ثقافته المسيحية الغربية فوجد نفسه ليس في موقف دافعي عن المسيحية بل في موقف هجومي على الإسلام. وفي ذلك يقول مراد هوفمان: «وطبيعي أن انتصارات المسلمين جنحت بالإنسان الغربي المسيحي إلى الزعم بأن الإسلام دين عدواني فصار يتشبث بالادعاء أن الإسلام إنما انتشر بحد السيف». ومما يجدر ذكره في هذا السياق أنه من الأكيد فيما يسمى بإسرائيل اليوم هناك صقور من أمثال رافائيل إيتان وبنيامين نتياهو وإرييل شارون، وحتى حمائم من أمثال يهودا باراك وشمعون بيرز ما زالوا يبررون استخدامهم للقوة والعنف في التعامل مع الفلسطينيين على أساس أن الإسلام يعلمهم أن على المسلمين أن يقاتلوا الناس من كل الأديان بوصفهم أعداء لهم وأن يقوموا بإفنائهم عن طريق العنف. خطاب مفاده أن تقوم الدولة اليهودية بمعاودة سلام مع هؤلاء العرب المسلمين في فلسطين أمرٌ مستحيل، لذلك فإن هذه الدولة معها كل الحق في استخدام العنف والقتل والتدمير لردعهم. إن كلمات الجنرال اللنبي «اليوم انتهت الحروب الصليبية» التي قالها حين دخل

مدينة القدس في سنة 1917م ما زالت ملتصقة بأذهان العرب والمسلمين، كما أن الأحداث الجارية في بلاد العرب والمسلمين لتؤكد الخطر الداهم للصليبية الجديدة في المعاملة الغربية العدائية للإسلام والمسلمين، وإن الأيام القادمة سوف تثبت تأثير الحملات الصليبية في عالمنا المعاصر، في الشرق وفي الغرب على حد سواء. بناءً عليه نستطيع القول إن وسائل الإعلام العربية والإسلامية مطالبة بالتصدي لما ينشر في الصحف والمجلات وبيث في برامج إذاعية وتلفزيونية أو ما يدور في بعض المحافل الدولية حول القرآن والإسلام، والعرب والمسلمين؛ كما أن على الأوساط الجامعية والعلمية والثقافية أن تقوم برصد ما ينشره المستشرقون، وأن يترجم إلى اللغة العربية، وأن تتم دراسة ذلك الإنتاج ونقده على أسس موضوعية، بغية إظهار الحقيقة وكلما دعت الضرورة إلى ذلك. وأخيراً، إن هذه الأوساط هي الأطراف الشرعية المعنية بتتبع تلك الدراسات وترجمات القرآن الكريم والاعتراف بالجيد منها وقبوله. وبما أن ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية هي وسيلة مهمة للاطلاع الدين الإسلامي، وبما أننا لا نملك القدرة على إيقاف تراجم القرآن الكريم في أرجاء مختلفة من العالم، فلا بد أن نتصدى لمحاولات التشويه وذلك باتخاذ مواقف علمية نقدية على صعيد المستويات المذكورة كلها.

مراجعة: ترجمة روبرت أوف كيتون للقرآن الكريم.

بقلم جيمس كريترك

صدرت مراجعة لترجمة روبرت أوف كيتون في جمعية زملاء جامعة هافارد عام 1955م لجيمس كريترك وهو أمريكي متخصص في الدراسات العربية والإسلامية، وكان كريترك قد أعد أطروحة الدكتوراه عام 1954م في جامعة برنستون حول بيتر الجليل، وقد نشرت الجامعة هذه الأطروحة في كتاب تحت عنوان (بيتر الجليل والإسلام) عام 1964م. ويحاول كريترك في مراجعته هذه أن يلخص بعض النتائج التي وصل إليها نتيجة مراجعته لمخطوطة ترجمة روبرت للقرآن الكريم التي تفيد الباحثين المهتمين في هذه القضية، والتي تتركز تحديداً في بيان أهمية ترجمة روبرت للقرآن أوربياً وتأثيرها في تراجم غربية لاحقة وفي الدفاع ضمناً عن بيتر الجليل، وذكر بعض التفاصيل المهمة والظروف التي تمت فيها هذه الترجمة. وتتميز هذه المراجعة بموضوعية بحثية من وجهة نظر القارئ والباحث الغربي المسيحي - لكنها تقدم أيضاً الوجه الآخر للمسألة بالنسبة للقارئ والباحث العربي المسلم، وتظهر خلفية التحامل الديني والثقافي التي تمت على الإسلام والمسلمين في أجواء مشحونة بالتوتر والعداء الصريحين.

إن ترجمة مراجعة كريترك إلى العربية والتقديم لها والتعليق عليها وبيان الظروف التاريخية والثقافية

والدينية التي تمت في ثناياها ترجمة روبرت أوف كيتون للقرآن الكريم التي هي موضوع المراجعة يخدم على نحو أولي فهم عملية ظهور هذه الترجمة تحديداً وظهور ترجمات أخرى تتطوي على كثير من المسائى والتحامل عبر تاريخ طويل من الصراع والعداء غير المبررين تجاه الإسلام. وقد رأيت في هذا العمل بعض المعلومات التي قد تشكل مساهمة متواضعة باتجاه فهم عربي- إسلامي علمي وموضوعي لأهداف من قاموا بترجمة القرآن الكريم من غير المسلمين. وحسبي أن أصيب الغاية عبر هذا الجهد في الترجمة، فمن عمل فأصاب فله أجران ومن عمل ولم يصب فله أجر واحد.

## نص المراجعة

لقد غدا من المعروف لدى الباحثين ومنذ وقت طويل وجود ترجمة لاتينية للقرآن الكريم تمت بتقويض من بيتر الجليل، الرئيس التاسع لدير رهبان كلوني، وتأثير هذه الترجمة في كثير من التراجم الأوروبية التي تمت فيما بعد. إن ما يدعو المرء للأسف هو أن الكثير من الحقائق حول هذه الترجمة لم تظهر إلا مؤخراً، وذلك بسبب وجود أخطاء وحذف مواضع كثيرة في مخطوطات لاحقة، وبسبب سوء استخدام المصادر اللاتينية ظل كل شيء مجهولاً إلى أن قامت ماري تيريز دو الفيرني باكتشاف المخطوطة الأصلية المكتوبة بخط المؤلف من جديد والمؤرخة عام 1162م في مكتبة الأرسنال بباريس، وأجرت عليها دراسة أولية، عندها تم شق طريق جديد من أجل القيام بدراسة جدية حول هذا الموضوع. ولعل الباحثين في الإسلاميات يجدون من المفيد لهم أن يطلعوا على نتائج تقصص تم مؤخراً قمت به على المخطوطة التي سأقوم بإيجازها هنا، وستكون محط اهتمام خاص بالنسبة إليهم.

لقد كانت زيارة بيتر الجليل إلى الكنائس والأديرة الكلونية في إسبانيا في العامين 1141م و 1142م هي المناسبة المباشرة لتخطيطه ذلك المشروع الطموح، الأول من نوعه في العالم المسيحي، الذي يهدف إلى دراسة الإسلام. إنني مقتنع بأن هذا المشروع لم يكن فكرة وليدة المصادفة ولكنه مشروع يتصل على نحو حميم بخصوصيات ثقافة بيتر ومزاجه، كما يتصل بأعماله ذات الصلة الدفاعية والجدلية، وبعد قناعاته العميقة بالاتجاه الذي خطته الحركة الصليبية في زمانه. كان بيتر رجلاً متقناً، وعبر صراحة بأن هناك القليل جداً من المعلومات الموثقة عن الإسلام باللاتينية، وكان يلوم دائماً الجهل المسيحي على فقدان الحماس من أجل دراسة اللغات. ونظراً إلى أنه لم يكن نفسه يعرف العربية، فقد كان تحركه الأول يتمثل في استخدام مترجمين عن العربية كي يزودوه بالمعلومات.

ويمكن أن يكون البحاثة ريموند دولاسوفيتات، الذي كان رئيساً لأساقفة طليطلة وأبا مسؤولاً عن جماعة كبيرة من الباحثين، قد ساعد بيتر في اختيار مترجميه والنصوص التي يجب أن ينقلها، وفي أي حالة، كما أخبر بيتر برنارد أوف كليرفو فيما بعد، بأنه قد علم بوجود عمل عربي (يُفند) العقيدة الإسلامية وأنه نصب شخصاً يدعى (المعلم بيتر من طليطلة) ليعمل على ترجمة هذا العمل له إلى اللاتينية، ولكن لأن اللغة اللاتينية لم تكن مألوفة أو معروفة بالنسبة إليه كما هي العربية، لذلك قدمت المساعدة لهذا الرجل العالم، ابننا وأخي، بيتر الشهير. قام هذا الرجل بصقل الكلمات اللاتينية وترتيبها، التي كان قد وضع معظمها بنفسه (أقصد المعلم بيتر من طليطلة) بطريقة ينقصها الصقل والترتيب، وبهذه الطريقة أخرج رسالة، أو بالفعل كتاباً صغيراً، كان مفيداً كثيراً مستقبلاً للعديد، في اعتقادي، وذلك بسبب المعلومات التي يوصلها عن أمور لم تكن معروفة من قبل. وقد كان من الصعب أن يصدق كثير من الباحثين أن بيتر كان يتحدث عن القرآن في ذلك النص؛ والترجمة التي نحن بصدد الحديث عنها هي ترجمة «رسالة عبد الله ابن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي ورسالة الكندي إلى الهاشمي، وهي الرسالة المسيحية الدفاعية المشهورة».

(بالإضافة إلى ذلك)، فقد تابع بيتر كلامه لبرنارد، «فقد ترجمت عن العربية إلى اللغة اللاتينية أيضاً.... العقيدة المتعصبة، وسيرة حياة محمد، والقانون، الذي يُطلق عليه اسم القرآن، الذي هو، (مجموعة من القواعد) ... (وفيما يخص الترجمتين الأخيرتين) فقد كان المترجمون يفتقون كلا اللغتين: روبرت أوف كيتون من إنكلترا، الذي هو رئيس الشمامسة في كنيسة بامبلونة الآن، وهرمان أوف دالماتيا، وهو بحاث ذو عبقرية أدبية واضحة كل الوضوح. وقد عثرت عليهما في إسبانيا بالقرب من نهر ايبرو يدرسان فن التنجيم وقد جعلتها يقبلان القيام بهذا المشروع عن طريق منحهما مكافأة كبيرة. وفي شرح متأخر أفاد بيتر بوجود مترجم آخر معهما؛ ولكي تكون الترجمة (الترجمات) متممة بأقصى درجات الأمانة، ولكي لا يضيع عنا أي شيء عن طريق المختلة، أضفت مترجماً من الساراسين إلى فريق الترجمة المسيحية.... كان اسم ذلك الساراسين محمد. وقد ترجم كل من هرمان وروبرت عملياً: ترجم هرمان (مسائل) أبي الحارث عبد الله بن سلام و(كتاب نَسَب الرسول) لسعيد بن عمر؛ كما ترجم روبرت مجموعة لا تزال غير معروفة من القصص الأسطورية اليهودية الإسلامية، ومعها ملاحظات حول سيرة حياة محمد

والخلفاء الأوائل، بالإضافة إلى القرآن. إن ذكر بيتر الجليل لهرمان وروبرت مع بعضهما على أنهما مترجما الأعمال الأربعة المذكورة أدى إلى اعتقاد كثير من العلماء أن الاثنين تعاونوا في إنجاز هذه الأعمال الأربعة، ولكن عناوين مخطوطة الأرسنال والمقدمتين اللتين كتبهما روبرت يدعيان عزو عملياً لكل منهما.

لقد ثبت أن ترجمة القرآن، وربما بحق، هي الجزء الذي يستحق الرجوع إليه من بين مجموعة طليطلة. وهي تمثل العمل الذي استغرق على الأرجح الوقت الأطول لإنهائه، وعلى أي حال فهو العمل الوحيد الذي يمكن تحديد زمن إنجازه بدقة. «إن روبرت أوف كيتون هو من قام بالترجمة»، فقد كتب هذا الكلام بخط جميل وواضح في مخطوطة الأرسنال، «في سنة السيد المسيح 1143، الموافقة لسنة الإسكندر 1403، ولسنة الهجرة 537، ولسنة الفرس 511». ويسمح هذا لنا أن نضع تاريخ إنهاء الترجمة فيما بين 16 حزيران و 15 تموز من سنة 1143، أي في بدايات السنة الفارسية 511 وسنة الهجرة 538 على التوالي. وقد أشار روبرت في مقدمته للترجمة إلى أنه مر بتجربة صعبة للغاية في إنجازها، على الرغم من أنه أصر على أنه لم يقم بتغيير «شيء» في المعنى إلا عندما اضطر إلى التوضيح ليس غير». فقد كان روبرت يفسر ذلك على نحو عام إلى حد ما. ومن ضمن أهم التصرفات التي قام بها في النص هي إعادة تقسيم السور القرآنية؛ فقد بدأ الترجمة دون ترقيم للفاتحة، وقسم السورة الثانية بما في ذلك سدسها الذي أنهاه إلى خمس عشرة سورة، وبذلك خرج في النهاية بزيادة قدرها تسع سور زيادة على ما هو موجود في الأصل. كان يحذف أحياناً فقرات ويرتكب أخطاء شنيعة في الترجمة، ولكن الخطأ الكبير الذي ارتكبه كان يكمن في ميوله في التعبير عن أسباب ونتائج في الترجمة هي غير موجودة في النص الأصل، محاولاً بطريقته المختلفة أن يخلق علاقات منطقية بين السور المستقلة أساساً. كما أن اختياره لعبارات تعتمد على عبارات وعظية مسيحية وعلى ذكريات أدبية أحياناً لغريب تماماً.

إن ترجمة القرآن في مخطوطة الأرسنال مثقلة بالشروح والتعليقات الكثيرة؛ فعلى سبيل المثال، تحتوي الصفحات العشر الأولى من المخطوط على 364 ملاحظة في الهوامش وبين الأسطر. وربما كانت بعض هذه الملاحظات من قبل روبرت أوف كيتون نفسه، لكنني أميل إلى الاعتقاد بأن بيتر أوف بواتيه هو من قام بمعظمها؛ وهي بطبيعتها تتراوح بين (كم كاذب) وتعليقات تدل على سعة الاطلاع، وتبلغ الكلمات التي تخص الكعبة والأعراف الإسلامية بالآلاف أيضاً. إن دراستي لهذه الترجمة ستتضمن

تحريراً لتلك الملاحظات كلها، هذا بالإضافة إلى فهرس بالمصطلحات اللاتينية والعربية المستخدمة.

لقد كان الهدف الأول لبيتر الجليل أن يداوي علة الجهل الأوروبي المسيحي بالإسلام، كما كانت ترجمت مجموعة طليطلة بداية رائعة. ولكن لأن بيتر وجد محتويات هذه المجموعة أحياناً «مسهياً، ومعظمه صعب الفهم»، قام فيما بعد بإعداد كتيب موجز بسيط، وصحيح عمومًا حول العقيدة الإسلامية عنوانه: «ملخص كامل عن هرطقة الساراسين». وبعد دراسة متأنية ومطولة لمشروعه، كان بيتر يرى أن دوره ينتهي تحديداً عند هذه النقطة، ولكنه عندما لاحظ وقتئذ أن بيتر أوف كليرفو أو أي شخص آخر لا يرغب في الاطلاع على تلك الترجمات عبر كتاب يُفند العقيدة الإسلامية من وجهة نظر مسيحية، لذلك قام في نهاية الأمر بكتابة كتاب عنوانه (كتاب ضد مذهب هرطقة الساراسين). ويختلف هذا الكتاب عن غيره من الكتب المسيحية السابقة واللاحقة الصادرة حول الإسلام لسببين: أولهما، الطريقة الهادئة والمحترمة التي يتوجه بها، وثانيهما معالجته فقط لموضوعات دينية قليلة على نحو موسع للغاية. ونقرأ في مستهل الكتاب: «إنه يبدو غريباً، ولعل الأمر كذلك، بالفعل، إنني أنا، رجل مختلف عنكم كثيراً من حيث المكان، وأتحدث لغة مختلفة، وظروف حياتي منفصلة عن ظروف حياتكم، وغريب عن عاداتكم وحياتكم، أكتب إليكم من الغرب البعيد إلى أراضي الشرق والجنوب، وإنني عبر كلامي هذا أهاجم أناساً لم أقابلهم من قبل، أناساً ربما لن أقابلهم مستقبلاً. لكنني أهاجمكم ليس بالطريقة التي يقوم بها بعض منا نحن (المسيحيين) غالباً، مستخدمين السلاح، إنني أستخدم الكلمات؛ ليس بالقوة، ولكن بالعقل، ليس بالكرهية، ولكن بالحب.... إنني أحبكم؛ ولأنني أحبكم أكتب إليكم؛ وبكتابتي إليكم، أنا أدعوكم إلى الخلاص». لم تُكتب المقادير (لكتاب بيتر)، كما كان يأمل أن يحدث، وهو أن يُترجم إلى العربية، كما أنه لم يؤثر على نحو ملحوظ في الجدل المسيحي الدائر بخصوص الإسلام لاحقاً. على أي حال، لقد تمتعت مجموعة طليطلة بنجاح كبير ضمن تراث مخطوطات غني وعدد من النسخ المطبوعة (إحدى هذه النسخ قدم لها مارتن لوتر) في القرن السادس عشر. وإذا كانت هذه المجموعة قد فشلت في إطلاع أوروبا على الإسلام، فإنها تبقى مع ذلك، شهادة على فطنة رجل مسيحي من القرون الوسطى وحماسه فضل اللجوء إلى السلم والتفاهم بدلاً من اللجوء إلى الحرب والجهل.